مقالة ادبية

الرواية العراقية بين الامس واليوم

أ.م.د. تغريد عبدالخالق هادي

كلية التربية ابن رشد

taghreedhadi76@gmail.com

لقد مرت الرواية العراقية بمنعطفات كثيرة منذ النشأة وحتى وصولها الى مرحلة النضج الفني .فمنذ البواكير الأولى لبزوغ فن الرواية في العراق التي جاءت على يد محمود احمد السيد ولاسيما روايته/ في سبيل الزواج/ 1921 .ومصير الضعفاء 1922. وروايته/جلال خالد/ 1928 .تكمن اهمية هذه الروايات في سبقها الزمني ف السيد كان اول من كتب ونشر بهذا الفن وبشكل مقبول نسبيا ..وهو رائد هذه المرحلة التأسيسية فلقد عرف بالفن الروائي في المشهد الثقافي العراقي الذي كان يغلب عليه الشعر. فلقد ساعدت الصحافة ودخول المطابع كثيرا على نشر الفن الروائي داخل العراق، ولاسيما مع بدايات الامر وشيوع فن القصة القصيرة الاكثر مؤامة للصحافة .

الا ان الامر تطور على يد عدد من المبدعين الذين حاولوا محاكاة الرواية الغربية المترجمة التي دخلت الى العراق او التي تعرفوا عليها بوساطة قراءتها باللغة الام. فنشأ عامل التاثر بالادب العالمي ولاسيما الإنكليزي بفعل الوجود البريطاني في العراق فضلا عن الادب الروسي بفعل التقارب الفكري وتاثرا بالحركة الشيوعية .ولقد نهض بهذه المهمة عدد من الكتاب العراقيين ، ولاسيما يحيى حقي ، وعبد الملك نوري ، وغائب طعمه فرمان، وفؤاد التكرلي .

فلقد نشر ذو النون ايوب روايته المعنونة/ الدكتور ابراهيم/ عام 1939 ونشر عبد الحق فاضل روايته / المجنونان/التي اتبعت السياق التشويقي في السرد عبر حبكة الرواية التي تقوم على لعبة الاختباء بين البطلين .ومن ثم صدرت رواية /اليد والارض والماء/لذي النون ايوب عام 1946 . ويمكن الوقوف عند الملامح العامة للفن الروائي في هذه المرحلة ، اذ انه أتسم بالعفوية ومحاكاة الأدب الغربي فضلا عن بساطة الاسلوب والمعالجة الدرامية للاحداث. فضلا عن التذبذب في مستوى السرد وتخبطه لأن المرحلة تأسيسية وغير ناضجة، لذا جاء المنجز الروائي غير متقن ويتصف بالتجريبية والتخبط ، وغلبة السرد الذاتي وفن

السيرة الذاتية على اغلب النصوص ،وذلك لسهولة بناء الاحداث ومخرجاتها داخل النص الروائي. اما المؤلف فلم يتموضع في مكان بعيد عن شخصياته، بل كان حضوره وتدخلاته داخل النص واضحة وساذجة في بعض الاحيان .فضلا عن معالجة الرواية لقضايا اجتماعية تشكل احد هموم المجتمع العراقي مثل قضية الإقطاع ومساواة المرأة بالرجل وتعليمها وقضية السفور. وعند نهاية الحكم الملكي في العراق في عام 1958 في العراق ظهرت بوادر مرحلة جديدة في الرواية، فظهرت روايات مثل /حياة قاسية / لشاكر خصباك في عام 1959، والوجه الاخر/ لفؤاد التكرلي عام 1960، ولقد اتسمت هذه المرحلة بالواقعية فكانت اداة للبوح عن الواقع العراقي ولاسيما الاقتصادي والاجتماعي وقدمت نماذج بشرية ترسم معاناة الشعب في ظل تغيير السلطة .

مرحلة الرواية الفنية .

وهي المرحلة التي بدأت برواية غائب طعمه فرمان /النخلة والجيران (1) / عام 1966، التي عدها النقاد الرواية الفنية الاولى في العراق وذلك لعوامل عدة ابرزها، بناء الشخصيات داخل الرواية ، فلقد أكد جورج لوكاش على عنصر الشخصية لانه يعتقد ان اهمية الشخصية تأتي من تمكن مبدعها من الكشف عن الصلات العديدة بين ملامحها الفردية وبين المسائل الموضوعية العامة، ومن قدرت على جعلها تعيش أشد قضايا العصر تجريدا وكأنها قضاياها الفردية المصيرية(2). ولعل البناء المتميز لعنصر الشخصية في الرواية هو ما جعل النقاد يؤرخون للرواية الفنية في العراق بصدور رواية النخلة والجيران، لاستكمالها عناصر البناء الفني في الرواية الحديثة . اذ تقوم الرواية على وصف الواقع البغدادي في فترة الحرب العالمية الثانية ووجود الاحتلال الإنكليزي لبغداد من خلال تسليط الضوء على محلة بغدادية صغيرة بشخوصها لكنها كبيرة بهمومها وكأنها عراق مصغر تنتمي هذه الشخوص للطبقة الكادحة البسيطة التي يعاني شخوصها شظف العيش ورصد تأثير الحرب والاحتلال على حياة هؤلاء الناس .

ان شخصيات النخلة والجيران المأزومة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا قد صورت الواقع العراقي والنسيج الاجتماعي البغدادي في تلك الحقبة .ولم تقتصر ولم يقتصر تصوير الشخصيات على تصوير الواقع المعاش والظروف التي يمر بها البلد آنذاك بل هي مدونة تاريخية تؤرخ لوقائع تاريخية في بغداد فضلا عن ان من اسباب نجاح هذه الرواية هو تصويرها للموروث العراقي ولاسيما البغدادي منه، من عادات وتقاليد اجتماعية واماكن تاريخية، تؤرخ لوقائع تاريخية تاريخية في بغداد .

ولعل من اهم اسباب نجاح هذه الرواية هو المستوى التعبيري للشخصيات، فلقد غلبت اللهجة العامية العراقية البغدادية على حوار الشخصيات المباشر ،وغلبة المفردات ذات الخصوصية المحلية مما جعل امر ذيوعها واشتهارها امر سهل لانها تخاطب المتلقي من الطبقة البسيطة الكادحة ،فضلا عن الاسلوب الساخر من الواقع في طرح ثيمة الرواية .

اما المتن السردي للرواية فقد جاء باللغة الفصحى وهو امر فني سبق فيه فرمان غيره من رواد الرواية في العراق، ولعل اجتماع هذه العناصر في عمل فني واحد ضمن حقبة زمنية محدودة في نتاجها الفني ،هيأ انتقال هذه الرواية للمسرح ولقد قام المسرح العراقي بتصويرها .ولم يتوقف الامر عند هذا الحد، فلقد عُدت من افضل مئة رواية عربية .ويستمر ابداع فرمان فقد أعقب النخلة والجيران برواية خمسة اصوات (3)، التي يقوم بناؤها على تعدد الاصوات او كما يصفها النقاد ب المورفولوجية وفيها يقوم بناء الرواية على بناء متعدد، فتكون فصول وكل فصل يختص بشخصية من شخصيات الرواية والتى تسمى صوتا وهو بناء حواري متداخل للشخصية وهي تقنية صعبة في بناء الرواية، ادخلها فرمان الى الفن العراقي عبر خمسة اصوات، فتحكي الرواية الآزمة الفكرية للشخصيات في حقبة الخمسينات وما تبعها من أحداث سياسية غيرت مجرى الحكم في العراق، ولاسيما هموم الطبقة المثقفة الواعية والوسط الصحفي العراقي . إلا أن ابداع فرمان لم يقف عند هاتين الروايتين فقط بل اعقبهما برواية المخاض(4)، اذ وصفت الرواية عراق ما بعد عام 1958 من خلال الشخصية الرئيسة في الرواية وهي المغترب الذي يفاجأ ببلاده اثناء عودته فضياع الذكريات وتبدل معالم المدينة وضياع بعضها حتى اضحى من الصعب جدا الوقوف عند الاماكن القديمة لما فعله الزمن بها .

وهذه الرواية تروي وقائع مكانية وتصور الفضاء البغدادي في حقبة السبعينات، فضلاً عن روايتها للصراع النفسي الذي يعتري بطل الرواية بين البقاء على انقاض وطن او العودة الى المهجر ، ويمكن التوقف عند ثيمة الرواية، اذ تعد هذه الرواية رواية سيرة ذاتية لتشابه احداثها مع احداث حياة المؤلف غائب طعمه فرمان وهجرته الى موسكو ورجوعه الى بغداد ومن ثم قراره بالعودة الى موسكو ليبقى فيها حتى وفاته.

ومن خلال وقوفنا على ابرز معالم المنجز الروائي لفرمان نستطيع القول ان رواية المخاض قد عبرت عن مؤلفها كثيرا ، فالشخصية في السرد تتمثل بوصفها شخصية في عالم ورقي ، إلا ان ذلك لا يمنع من اتحاد الكاتب مع الشخصية اتحادا وثيقا الى درجة يصعب الفصل بينهما (5) .

ويتشابه فرمان مع نجيب محفوظ في تصوير التأريخ روائيا ، فرواياته تؤرخ لمراحل العراق السياسية ولأزماته الاقتصادية والفكرية والسياسية ، ولعل الفكرة نفسها التي صورها محفوظ في ثلاثيته بين القصرين والسكرية وزقاق المدق مع اختلاف المعالجة والظروف ، فلقد أبدع فرمان في الرواية العراقية كما ابدع محفوظ في الرواية المصرية .

ولا يمكن مغادرة هذه المرحلة قبل التوقف عند عمل محكم وبارز وهو رواية الرجع البعيد لفؤاد التكرلي (6) ، اذ تنماز هذه الرواية بالاختلاف التام عن غيرها من الروايات العراقية ولاسيما على مستوى البناء والمحتوى الفكري للرواية .

فلقد حرص التكرلي على انتقاء شخصيات الرواية بفئاتها العمرية كافة بدقة وبحرفية عالية، ووضعها في بيئة ذات مستوى ثقافي مميز وربط هذه الشخصيات مع الأزمات السياسية للعراق في حقبة الستينات، إلا أن ما يميز هذه الرواية فنيا هو التكنيك الفني العالي في بناء الشخصية داخليا ، وذلك من خلال ادخال تقنيات تيار الوعي والاسترجاع والفلاش باك الى الرواية العراقية وبمهارة عالم في التقديم وبسبك فني متمكن .

وقد يعود ذلك إلى تأثر التكرلي بتقنيات الرواية الانكليزية ولاسيما رواية جيمس جويس التي تحمل عنوان / في ساعٍ من الزمن /التي احدثت نقلة نوعية كبيرة على مستوى التكنيك والبوح الداخلي للشخصيات عبر الاعتماد على تقنية المونولوج والمناجاة في بنائها الفني .

مرحلة ادب الحرب .

لعل هذه المرحلة في الرواية العراقية تبدء مع نشوب الحرب العراقية الإيرانية في عام 1980م، ولعل اول ما يمكن ملاحظته هو غلبة السرد التسجيلي على بعض الروايات التي اتخذت من موضوعة الحرب آطارا لها ، ويمتاز هذا السرد بغلبة الواقعية على الرواية وتصوير الاحداث تصويرا مباشرا بدون العناية بالمحتوى النفسي للشخصية ،فيكون فيها مكان الحرب هو المكان الرئيسي في الرواية وكل الاماكن الاخرى تدور حول هذه البؤرة المكانية، اما الزمن فمتغير ومتباين ما بين المعاش والمستعاد، ولعل ابرز من كتب في ادب الحرب هم، إسماعيل فهد اسماعيل في روايته/ الشياح/ (7)، وجهاد مجيد في روايته /تحت سماء داكنة (8).

ولقد لجأ بعض الكتاب الى التأريخ واستعمال الرمز في الكتابة فضلا عن الاسطرة أي ادخال الاسطورة الى الرواية ونجد ذلك غب روايات /عبد الخالق الركابي في روايته/ قبل ان يحلق الباشق (9) ، من خلال تصوير آزمة البطل الداخلية وضياعه .وروايته/الراووق/ (10) التي تدور حول تصوير ابطال الرواية في جبهات القتال وآزمة الجندي العراقي .والامر نفسه في روايته / من يفتح باب الطلسم/ (11)، وصاحب ظهور هذه الروايات حضورا قويا

للمنجز الروائي النسوي فعلى سبيل المثال نجد رواية لطفية الدليمي/ من يرث الفردوس/ (12)، ورواية /خسوف برهان الكتبي/(13)، قد تعرضت لاجواء الحرب وانعكاساتها على الواقع العراقي وتداعياتها على مستقبل الإنسان في هذا البلد وويلات الحرب على المرأة والمجتمع .

المرحلة الثالثة

تمثل هذه المرحلة نضوجا عاليا وهي الفترة االتي. عُرفت فيها الرواية العراقية بتفردها وتميزها ،الا ان هذا الامر لم يكن معروفا الا بعد عام 2003 اذ يمثل هذا التاريخ مرحلة الانفتاح على الآخر بأطيافه ومعتقداته كلها .اذ ان الحرية المطلقة التي تمتع بها المنجز الروائي العراقي بعد هذا التاريخ ، فتح له ابوابا ومساحات للاشتغال على المسكوت عنه في الرواية العراقية ، فظهرت روايات تتحدث عن الحقبة الماضية وتصويرها تصويرا دقيقا ، ولاسيما فترة الحصار والدمار الذي طال مدن العراق وساكنيها .

وظهر اتجاه اخر في الرواية العراقية وهو الروايات التي تعالج مشكلة الهجرة الى الخارج ، أي كان نوعها ، فقد تكون الهجرة بسبب. الظروف الاقتصادية او الاحداث الطائفية التي حدثت في عام 2007-2008. ولاسيما هجرة. المسيحيين من العراق ، فظهرت روايات تنتمي لهذه الطائفة العراقية. وتطرح موضوع الهجرة عبر تصوير حال اللاجئ العراقي بعيدا عن وطنه ، في. المنفى الاختياري الذي لجأ اليه نتيجة للضغوطات في الوطن الأم .

فظهرت روايات تعالج فكرة الهجرة نحو الاخر وتصور الاوطان البديلة التي احتضنت هؤلاء المهاجرين وكيفية التعامل معهم .

وسأتوقف عند رواية مهمة في هذه المرحلة التاريخية في الرواية العراقية وهي رواية / يا مريم/ للروائي العراقي سنان انطوان (14) ، والتي رُشحت للقائمة القصيرة لجائزة البوكر عام 2013 ، اذ يعالج انطوان داخل نصه الروائي مشكلة الاغتراب داخل الوطن ولاسيما في فترة الأزمات الطائفية التي نتج عنها عملية التهجير للعوائل وانتقالها بين محافظات العراق ووسطه وجنوبه ،اذ يسلط انطوان الضوء على شريحة مهمة من شرائح المجتمع العراقي الأ وهي الطائفة المسيحية ، فيصور انطوان ما لحق بالبلد من قمع وتهجير ، فيعقد مقارنة بين شخصيات الرواية وذلك بعقد مقارنة زمنية بين فترة الخمسينات التي يمثلها يوسف المؤمن ببقائه في وطنه رغم كل شيء لانه عاصر فترة الحكم الملكي للعراق وعايش النسيج المجتمعي العراقي المتماسك آنذاك ، فنجد لديه حس الانتماء واضح وبشدة ، على العكس من الجيل الجديد المتأثر بالإحداث السياسية التي ألمت بالعراق من قتل وتهجير وضياع للهوية، داخل

المجتمع، ويمثل هذا الجيل/ مها ولؤي/ اللذان يحاولان الهجرة بأي ثمن، لعدم الشعور بالانتماء لوطن يعاني من ويلات وازمات متتالية .

ونجد ضمن هذه المرحلة روايات نسوية اتخذت من مشكلة الهجرة وترك الأوطان آطارا لها، فلقد ابدعت/انعام كجه جي/ في عدد من رواياتها ضمن هذه الثيمة الروائية ولاسيما في روايتها/ طشاري/ (15)، التي صورت فيها آزمة العائلة العراقية المسيحية التي هاجرت من العراق اما طلبا للآمان او طلبا للرزق، لكل بقاع العالم، ونجد هذا المعنى عبر عتبة العنوان /طشاري/.التي أوضحت الكاتبة معناها في ثنايا الرواية عبر الحوار المباشر بين ابطال الرواية (طشاري)

- يعني ؟
- بالعربي الفصيح تفرقوا ايدي سبأ
- يعني؟
- تطشروا مثل طلقة البندقية التي تتوزع في كل الاتجاهات .
- ماما هل تكتبين اشعارا من الأسلحة والرصاص .
- انهم اهلي الذين تفرقوا في بلاد العالم مثل الطلق الناري (16) .

اذ تمثل الشخصية الرئيسة في الرواية وهي الدكتورة (وردية اسكندر) محورا مهما لاحداث الرواية وهي الخيط المتبقي كصلة وصل بين الوطن وابنائه المغتربين في شتى بقاع العالم ، فتصور العراق كأنه القلب وأولادها في المهجر كأنهم باقي اجزاء الجسد ، وهي ترفض فكرة الهجرة لما تملكه من ذكريات جميلة عن العراق واهله ، فلقد تدرجت بين احضان هذا الوطن كطبيبة في الجنوب وهي من الموصل وهكذا خُلق عراق صغير داخلها .وهي من الروايات الواقعية التي تطرح مشكلة الهجرة وتداعياتها على الآباء والأمهات اللذين قضوا معظم اعمارهم في هذه الاوطان .

ولقد اعقبت (كجه جي) روايتها طشاري برواية (الحفيدة الامريكية) (17)، ولقد وصلت هاتان الروايتان الى القائمة القصيرة للرواية العربية (البوكر) ، عام 2009 .

تصور (كجه جي) في رواية الحفيدة الامريكية الصراع النفسي الذي يعيشه الجيل الجديد الذي هاجر خارج العراق ولاسيما اثناء عودته الى ارض الوطن، وحالة الضياع والتشظي بين الوطن والوطن البديل (المهجر) فتصور (كجه جي) ببراعة هذه الثيمة لدى بطلة الرواية التي عادت كمجندة في الجيش الامريكي الذي احتل العراق بعد عام ٢٠٠٣، فنجد هذا الغوص لدواخل الشخصية واضح في الرواية، فتصف هذا الصراع:

(كنت اريد ان اتباهى امامهم بأني منهم ، سليلة منطقتهم، أتكلم لغتهم بلهجتهم، وبان جدي هو العقيد الركن يوسف الساعور الذي كان في اربعينيات القرن الماضي مساعدا لمدير التجنيد في الموصل، لكن كل ذلك كان مخالفا للتعليمات لأن كلامي ثرثرة قد تعرضني ورفاقي للخطر،

والتعليمات تريدني خرساء، لذلك تضايقت للمرة الأولى ، من بزتي العسكرية، التي تعزلني عن الناس، كأنني في خندق وهم في آخر، بل أنني بالفعل في خندق وهم في آخر، ولي مثل الممثلين البارعين في التقليد، القدرة على التقمص وتغيير الشخصيات ، وعلي ان اكون ابنتهم او عدوتهم في آن ، وآن ان يكونوا هم ، في الوقت عينه اهلي وخصومي) (18). يصور لنا هذا النص الصراع النفسي وأزمة الهوية التي يعيشها الابطال، فلا الاوطان تحتضنهم ولا المنفى يريحهم فهذه الغربة التي يعيشها الانسان العراقي المغترب بين حاضره وارتباطه الاجتماعي والنفسي والعقائدي واللغوي بالوطن، فهذا الشتات الروحي والفكري وقفت عنده كثير من الروايات إلا أن (كجه جي) ابدعت في نقل ذلك الى المتلقي .

ولعل ابرز ملامح هذه المرحلة هي حضور الموت في اغلب الاعمال الروائية وقد يكون ذلك بدافع معايشة الحروب والأزمات والوضع الأمني المهدد، فضلا عن النتاج الفني الكبير وهي مرحلة اتسمت بكثير من التنوع والتجريبية على مستوى اساليب ما بعد الحداثة فضلا عن التجديد في المضمون .

الهوامش:

1. النخلة والجيران / بيروت ، ١٩٦٦.
2. دراسات في الواقعية،جورج لوكاش، ترجمة: نايف بلوز،وزارة الثقافة، ط2، دمشق– سوريا،1970م: 28
3. خمسة اصوات / بيروت ، ١٩٦٧ .
4. المخاض/ بغداد . ١٩٧٤ .
5. يُنظر: بنية الشكل الروائي-الفضاء– الزمن – الشخصية، حسن بحرا وي، المركز الثقافي العربي، ط١ ١٩٩٠: ٢٦٩
6. الرجع البعيد ، بيروت، ١٩٨٠ .
7. الشياح ، اسماعيل فهد اسماعيل ١٩٩٦ .
8. الاعمال الكاملة : دار ينابيع للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠١٠ .
9. قبل ان يحلق الباشق ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٩٠ .
10. الراووق ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية /١٩٨٦ .
11. من يفتح باب الطلسم ، بغداد ، دار الرشيد ، ١٩٨٢ .
12. من يرث الفردوس ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب . ١٩٨٩ .
13. خسوف برهان الكتبي ، مدريد ، دار الواح ، ٢٠٠٠ .
14. يا مريم ، سنان انطوان ، دار الجمل ٢٠١٢ .
15. طشاري ، انعام كجه جي ، دار الجديد ، لبنان ، ٢٠٠٣ .
16. طشاري ، انعام كجه جي ، دار الجديد ، ط٢ ، ٢٠١٤ : ٢٠ .
17. الحفيدة الامريكية ، أنعام كجه جي ، دار الجديد لبنان ، ط٢ ٢٠٠٩ .
18. الحفيدة الامريكية ، أنعام كجه جي ، دار الجديد ، لبنان ، ط٢ ، ٢٠٠٩ : ١٥ .